محمَّد الماغُوط... شاعرُ الأسئلةِ والحُزن

المَولِدُ والنَّشأة: وُلِدَ الشَّاعرُ والأديبُ السُّوريُّ محمَّد الماغوط في 12 ديسمبر/كانون الأوَّل من سنةِ 1934 في قرية سلميَّة بمحافظة حماة، وكان الابنَ البِكْرَ لأُسرةٍ ريفيَّةٍ تقليديَّة. قضى سنواتِه الأولى في ظروفٍ معيشيَّةٍ جيِّدةٍ بما كان يُدِرُّه دُكَّانُ والدِه من أرباحٍ في تلك الفترة، ثمَّ تَراجَعَ دَخْلُ الأُسرةِ بعدَ أن باعَ أبوه الدُّكَّانَ واشترى بقيمتِه حصانًا نَفَقَ بسببِ غَلاءِ العَلَف. اضطُرَّ والدُه إلى العملِ أجيرًا في الحقول وكان عَمَلُه لا يوفِّر إلَّا بضعةَ أكياسٍ من القمحِ أو الشَّعيرِ نهايةَ الموسم، فكانت حبَّاتُ البطاطا التي تأتي بها والدتُه من الحقلِ هي طعامَهُمُ الدَّائم.

ابتُلِيَ بالتَّدخين وهو في التَّاسعةِ من عُمُرِه فَلَقِيَ مُعامَلةً جافَّةً من والده، إذ كان يضربُه ويَشْتُمُهُ في السُّوقِ لأنَّ هذا الأمرَ كان مُعيبًا في القرية. عَمِلَ في كلِّ اتِّجاهٍ للحصولِ على النُّقود، وكثيرًا ما كان يستولي على نقودِ شقيقِه عيسى، وكانا يقرآن سورةَ "الرَّحمن" في المقابرِ بمناسبةِ الأعيادِ مُقابلَ بضعةِ قُروشٍ أو فَرَنْكَات.

كان الصَّبيُّ الأشقرُ عصبيَّ المزاجِ لا يُطِيقُ البقاءَ في البيت، ويُحِبُّ الخروجَ إلى الشَّارعِ أوَّلَ استيقاظه، وقد اتَّسمَ بالميلِ إلى القسوةِ والعُنفِ والعِراك. رعى الخِرَافَ في السَّابعةِ من عُمُرِه، وكانت وِسَادَتُه مَحْشُوَّةً بنُخَالةِ القمحِ ولِباسُه من البالَةِ (الملابس المستعملة). كان يرفضُ مبادرةَ أحدٍ بالتَّحيَّة، ولا يدخلُ بيتَ أحدٍ في القرية، وكَرِهَ رِفَاقَهُ في المدرسةِ لأنَّهم أبناءُ موظَّفين، وكان يَتَشاجَرُ مع أيِّ أحدٍ يسخرُ من فَقْرِ والدِه.

عاشَ إحساسَ الظُّلمِ وفُقدانِ العدالةِ الاجتماعيَّةِ في قريتِه التي كانت مُنْقَسِمَةً إلى أقلِّيَّةٍ من الأغنياء وأكثريَّةٍ من الفلَّاحين والرُّعاة. تزوَّجَ بالشَّاعرةِ سنيَّة صالح ورُزِقَ بابنتين، واتَّسمت علاقتُهُما بالمُشاجَرَات المستمرَّة، فقد كان الماغوطُ عنيفًا معها وتسبَّب في إجهاضِها وهي في الشَّهرِ التَّاسع.

الدِّراسةُ والتَّكوينُ العلميُّ: تلقَّى الماغُوطُ تعليمَهُ الأوَّليَّ في الكُتَّاب، وهناكَ نشأ على حُبِّ اللُّغةِ العربيَّةِ وخَتَمَ القرآنَ حِفْظًا وتِلاوةً وعُمُرُهُ ستُّ سنواتٍ تقريبًا، فاسْتَهْوَتْهُ القِصَصُ القُرآنيَّةُ وحرَّكتْ مُخَيِّلَتَهُ في كتابةِ خَوَاطِرَ وانطباعاتٍ كما قال. أمَّا تعليمُهُ الابتدائيُّ فتلقَّاهُ في مدرسةِ القريةِ وكان ذكيًّا يحفظُ دروسَه بسرعةٍ، وقد عُرِفَ بخطٍّ جميلٍ وكان يرسمُ، ولكنَّه تخلَّى عن حُلُمِهِ بأن يُصبحَ رسَّامًا وتمسَّكَ بالكتابة.

اضطُرَّ إلى دراسةِ المرحلةِ الثَّانويَّةِ في ثانويَّةِ "خرابو" الزِّراعيَّة في دمشق، لأنَّ الطَّعامَ والمَبيتَ كان على نَفَقَةِ الحكومة. درسَ عامَهُ الأوَّلَ بتفوُّقٍ، وفي عامِهِ الثَّاني أرسلَ والدُهُ إلى المدرسةِ يَسْتَمْهِلُها بشأنِ تسديدِ الرُّسومِ المُتَوجِّبةِ على ابنه، ولكنَّ المديرَ علَّقَ الرِّسالةَ في لوحةِ الإعلانات فَفَضَحَ فَقْرَهُ أمامَ زُمَلائِه، ممَّا جَعَلَهُ يتركُ المدرسةَ قبل أن ينتهي العام، ولكنَّ صَدْمَةَ الواقِعَةِ حفرتْ في نفسِهِ قهرًا لم يَنْسَهُ طوالَ حياتِه.

تعرَّفَ في فترةِ الدِّراسةِ بالشَّاعرِ سُلَيمان عَوَّاد، ومنه اطَّلعَ على الشِّعرِ الحديث، لا سيَّما شِعْرُ أرثور وشارل بودلير، كما قرأ مختاراتٍ لفرانس كافكا، وقرأ بعضَ الشِّعرِ القديمِ للمتنبِّي وأبي نوَّاسَ والحديثِ لجُبران خليل جُبران.

الانتماءُ الحزبيُّ والاعتقال: اِلْتَحَقَ الماغُوطُ في شبابِهِ بالحِزبِ السُّوريِّ القوميِّ، في عام 1950، من دونِ أن يقرأَ مَبادِئَهُ، على حدِّ قولِه، وقد قادَهُ الانتماءُ الحزبيُّ إلى السِّجنِ مرَّتين، عام 1955 لمُدَّةِ تسعةِ أشهُرٍ وعام 1961 لمُدَّةِ ثلاثةِ أشهُر، تخلَّلتهما الكثيرُ من المُلاحَقَات. لازَمَهُ الخوفُ والتَّمرُّدُ حتَّى آخرِ عُمُرِه، وظلَّتْ مُفرَداتُ الجوعِ والبردِ والحُزنِ والشَّكوى والحِرمانِ ساكنةً في كتاباتِهِ وحياتِهِ حتَّى بعدما أَمِنَ جانبَ السُّلطة. يقول: "كلُّ كتابتي من الشِّعرِ والسِّينما والصِّحافَةِ كانت لِتَرميمِ ذلك الكَسْرِ الذي وَرِثْتُهُ من السِّجن، ولكنَّني لم أستطع".

الحياةُ المِهْنِيَّةُ: بعدَ إنهائِهِ الخِدمةَ العسكريَّةَ الإلزاميَّةَ، انتقلَ الماغُوطُ إلى بيروتَ فانضمَّ إلى مجلَّة "شِعْر" في بدايةِ نشاطِهِ الإبداعيِّ، وانسحبَ منها أواخرَ عامِ 1961 لِخِلافاتٍ فكريَّةٍ بينه وبين فريقِ المجلَّة، قالَ عنها: "افترقنا لأنَّني شاعرُ أزِقَّةٍ لا شاعرُ قُصُور".

عُيِّنَ رئيسَ تحريرٍ لمجلَّة الشُّرطة السُّوريَّةِ وكتبَ فيها مقالاتٍ ساخرةً في صفحةِ "الورقة الأخيرة"، وشارك في تأسيسِ جريدةِ تشرين عام 1975، وتناوبَ مع زكريَّا تامِر على كتابةِ زاويةٍ يوميَّةٍ بعنوان "عزفٌ مُنفَرِد"، ولكنَّ الحكومةَ لم تُطِقْ سُخريَّتَهُما فاسْتَعْنَتْ عنهما. في الثَّمانينات عَمِلَ في "المسرح القوميِّ"، ثمَّ مع الهيئةِ العامَّةِ للإذاعةِ والتِّلفزيون.

التَّجربة الأدبيَّة: من سِجْنِ المرَّة في دمشق بدأتْ رحلتُه الأدبيَّةُ على وُرَيقاتٍ صغيرةٍ لِلَفِّ السَّجائرِ كان قد دوَّنَ عليها بعضًا ممَّا جاشَ في نَفْسِهِ على أنَّه مذكِّراتُ سجينٍ، فكتبَ قصيدتَهُ المُكتملةَ الأولى "القتل" التي أخذت خَمْسَ عَشْرَةَ صفحةً من ديوانه الأوَّل.

في المُعتَقَل أيضًا بدأتْ بَوَاكيرُ كتابتِهِ المسرحيَّةِ، فكتبَ مسرحيَّةَ "العُصفور الأحدب"، واعتقدَ أنَّها قصيدةٌ طويلةٌ يصفُ فيها حالتَه، قبل أن يعلم من زوجته أنَّها مسرحيَّة.

دخل الماغُوطُ إلى بيروتَ بالوُرَيقات التي هرَّبها من المُعتَقَلِ في ثيابِهِ الدَّاخليَّةِ وقدَّمَهُ أدونيس في أحد اجتماعات مجلَّة "شِعْر"، وكانت قصيدةُ "القتل" أوَّلَ ما نُشِرَ في المجلَّة تحت مُسَمَّى ما عُرِفَ في أدبيَّات النَّقد العربيِّ الحديث بـ "قصيدة النَّثر"، وقد عدَّها النُّقَّادُ بدايةَ تأسيسِ قصيدةِ نثرٍ فطريَّةٍ لا تَتْبَعُ تيَّارًا ولا مدرسة.

كان شعره من دون وزنٍ أو قافيةٍ أو إيقاعاتٍ مباشرةٍ وبلغةٍ بسيطةٍ لا تَحْفِلُ كثيرًا بالدِّقَّةِ اللُّغَويَّة، كما كانت تراكيبُهُ سهلةً متكوِّنةً من مفرداتِ الحياة اليوميَّة. لهُ ثلاثةُ دواوينَ شعريَّةٍ هي: "حُزنٌ في ضوءِ القمر" 1959، و"غرفةٌ بملايين الجُدران" 1960، و"الفرحُ ليس مهنتي" 1970؛ وروايةٌ بعنوان "الأُرجُوحة" 1974، والعديدُ من المسرحيَّات والمسلسلات التِّلفزيونيَّة والإذاعيَّة.

الوفاة: في أيَّامِهِ الأخيرةِ واجَهَ الأمراضَ وداهَمَتْهُ الكآبةُ والوحدةُ فكانَ لا يُغادر أريكتَهُ إلَّا على كرسيٍّ متحرِّك. عاش حتَّى آخر عُمُرِه إدمانًا غير طبيعيٍّ على الكحولِ والتَّدخينِ والنَّومِ في اليومِ عشراتِ المرَّات. تُوُفِّيَ ظهيرةَ الثَّالث من أبريل/نيسان 2006 في منزله في دمشق، بعد معاناةٍ طويلةٍ مع المرض، وكان ذلك في اليوم المقرَّرِ لتكريمه من وزارةِ الثَّقافةِ السُّوريَّة.

القصائد – من ديوان "الفرحُ ليس مهنتي"

1. خريفُ الأقنعة

أيُّها المارَّةُ
أخْلُوا الشَّوارعَ من العذارى
والنِّساءِ المُحَجَّبات...
سأخرجُ من بيتي عاريًا
وأعودُ إلى غابتي.

مُحالٌ.. مُحال
أنْ أتخيَّلَ نفسي
إلَّا نهرًا في صحراء
أو سفينةً في بحرٍ
أو.. قردًا في غابةٍ
يقطفُ الثِّمارَ الفجَّةَ
ويُلقي بها على رؤوس المارَّة
وهو يقفزُ ضاحكًا مصفِّقًا
من غصنٍ إلى غصن.

أنا لا أحملُ هُوِيَّةً في جَيبي
ولا موعدًا في ذاكرتي
أنا لم أجلسْ في مقهى
ولم أتسكَّعْ على رصيفٍ
أنا طفلٌ
ها أنا أمدُّ جسدي بصعوبةٍ

لأدفِنَ أسناني اللَّبَنِيَّةَ في شُقوق الجدران
أنا شيخٌ
ها ظهري ينحني
والمارَّةُ يأخذون بِيَدي
أنا أميرٌ
ها سيفي يتدلَّى
وجوادي يصهلُ على التِّلال
أنا متسوِّلٌ
ها أنا أشحذُ أسناني على الأرصفة
وألحقُ المارَّةَ من شارعٍ إلى شارع
أنا بطلٌ... أين شعبي؟
أنا خائنٌ... أين مشنقتي؟
أنا حِذَاءٌ... أين طريقي؟

2. خوفُ ساعي البريد

أَيُّها السُّجَناءُ في كلِّ مكانٍ
ابعثوا لي بكلِّ ما عندكم
من رُعبٍ وعويلٍ وضَجَر

أَيُّها الصَّيَّادون على كلِّ شاطئٍ
ابعثوا لي بكِّل ما لديكم
من شِباكٍ فارغةٍ ودُوَارِ بحر

أيُّها الفلَّاحون في كلِّ أرض
ابعثوا لي بكلِّ ما عندكم
من زهورٍ وخِرَقٍ بالية
بكلِّ النُّهودِ التي مُزِّقَتْ
والبطون التي بُقِرَتْ
والأظافر التي اقتُلِعَتْ
إلى عنواني.. في أيِّ مقهى
في أيِّ شارعٍ في العالم
إنَّني أُعِدُّ "ملفًّا ضخمًا"
عن العذاب البشريِّ
لأرفعَهُ إلى اللّٰه
فَوْرَ توقيعِهِ بشِفاه الجِيَاع
وأهدابِ المنتظرين
ولكن يا أيُّها التُّعَساءُ في كلِّ مكان
جُلُّ ما أخشاه
أنْ يكونَ اللّٰه "أُمِّيًّا"

3. شتاء

كالذِّئاب في المواسم القاحله
كنَّا ننبتُ في كلِّ مكان
نحبُّ المطرَ
ونعبُدُ الخريف

حتَّى فكَّرنا ذاتَ يومٍ
أن نبعثَ برسالةِ شُكرٍ إلى السَّماء
ونُلصِقَ عليها
بَدَلَ الطَّابع.. ورقةَ خريف
كنَّا نؤمن بأنَّ الجبالَ زائله
والبِحَارَ زائله
والحضاراتِ زائله
أمَّا الحُبُّ فَبَاق..
وفجأةً: افترقنا
هيَ تُحبُّ الأرائكَ الطَّويله
وأنا أُحِبُّ السُّفُنَ الطَّويله
هيَ تعشق الهمسَ والتَّنهُّداتِ في المقاهي
وأنا أعشق القفزَ والصُّراخَ في الشَّوارع
ومع ذلك..
فذراعايَ على امتدادِ الكون
بانتظارِها...

1. لماذا تراجَعَ دَخْلُ أُسرةِ الماغوط حين كان طفلًا؟
2. متى بدأ الماغوطُ بالتَّدخين وكيف كان رَدُّ فِعْلِ أبيه على ذلك؟
3. كيف كانت علاقتُه بزوجته (الشَّاعرة سنيَّة صالح)؟
4. لماذا تركَ المدرسةَ في المرحلة الثَّانويَّة؟
5. لماذا سُجِنَ مرَّتَين؟
6. ما عنوانُ الزَّاوية التي تناوَبَ مع زكريَّا تامر على كتابتها؟
7. أين وكيف بدأتْ رحلتُهُ الأدبيَّة مع الكتابة؟
8. كم روايةً كَتَبَ وماذا كان عنوانُها؟
9. كيف كانت وفاتُه؟

10. استخرِجي جميع الصِّفات الموجودة في القصائد.

11. استخرجي الحال من جميع القصائد.

12. ما مُفرَدُ الجُموع التَّالية؟

أ. مارَّةٌ .....

ب. عذارى .....

ت. شُقوقٌ .....

ث. سُجَناء .....

ج. شِباكٌ .....

ح. أهدابٌ .....

خ. تُعَساء .....

13. اكتبي جُمَلًا باستخدام الكلمات والأفعال والتَّراكيب التَّالية:

أ. نَفَقَ:

ب. عَصَبيُّ المزاج:

ت. التَحَقَ بِـ:

ث. مُدْمِنٌ:

ج. خائنٌ:

14. صِلي بين كلِّ جملةٍ في العمود الأوَّل والرَّدِّ الذي يُناسبها في العمود الثَّاني:

أحتاجُ إلى خزانةٍ لُغرفتي	لأنَّ الطَّريقَ طويلٌ
كم صفحةً قرأتِ	غَيِّرِ القناةَ بِسُرعة
لماذا تأخَّرتَ	لا تَخَفْ، أنا سبَّاحٌ ماهرٌ
الأمواجُ عاليةٌ	لا تقلقْ، المظلَّةُ معي
هذا فيلمُ رُعْبٍ	اذهبْ إلى النَّجَّار
السَّماءُ صافيةٌ اللَّيلةَ	اليومُ عطلةٌ، هل نسيت؟
استيقظْ، لدينا عملٌ كثيرٌ	لا أذْكُرُ بالضَّبط، ولكن نَحْوَ عشرين صفحةً
بدأتْ تُمطِر	نعم، إنَّها مرصَّعةٌ بالنُّجوم

15. أعدِّي بالعربيَّة نبذةً عن الشَّاعر الإيطاليِّ بْيِيرْ لويجي كابِّلُّو Pierluigi Cappello